مدخل لدراسة تاريخ المغرب القديم

درج الاصطلاح التاريخي على تقسيم أطوار حياة البشرية منذ نشأتها إلى اليوم على مراحل زمنية تختلف امتدادا من بقعة إقليمية إلى أخرى؛ فهي لا تخرج عن التقسيمة الثلاثية: قبل التاريخ، قبيل التاريخ والتاريخ. وتنقسم هذه الثلاثية بدورها إلى محطات تاريخية بحسب طبيعة التطور الطارئ على المجتمعات البشرية؛ فالعصر التاريخي الذي يهمنا قد قسم في الغالب، حسب الخصوصيات الإقليمية للتطور، إلى: تاريخ قديم، وتاريخ وسيط، وتاريخ حديث، ثم تاريخ معاصر. هذا أشهر اصطلاح درج عليه أهل التاريخ. وقد عرفت بلاد المغرب هذه الأطوار التاريخية جميعها، واختصت كغيرها بمميزات زمنية وشكلية، كما اختصت باقي بلاد المعمور.

فمتى تبدأ مرحلة التاريخ القديم ببلاد المغرب؟

للإجابة عن هذا التساؤل وجب علينا أن نعرف قبل كنه مصطلح "التاريخ القديم" عند المؤرخين؛ فهو عندهم: فترة زمنية محدودة في طريق تطور المجتمعات البشرية، مرتبطة بدرجة كبرى بأولى الحضارات الكتابية، أو المكتشفة

للكتابة. هذا يعني أن النقطة الرئيسة في تمييز بداية الزمن التاريخي القديم هو ظهور الكتابة في الحضارات البشرية. فأول ما يظهر لنا أن هذا التمييز نسبي من وجهين: أنه يؤرخ للزمن التاريخي القديم ببداية الكتابة، باعتبارها عنصرا رئيسا لا أنها العنصر الوحيد. ثم أن هذا التحديد غير متوافق في جميع الحضارات البشرية؛ فطور الكتابة قد تقدم عند حضارات وتأخر عند أخرى، مما يلزم عنه اختلاف بداية العصر التاريخي من حضارة وإقليم لآخر.

فإذا تتبعنا بداية ظهور الكتابة في الحضارات القديمة وجدنا أن حضارة بلاد الرافدين قد دخلت التاريخ ابتداء من 3400 سنة قبل الميلاد، حيث كان أول ظهور للخط المسماري في العهد السومري. وان مصر القديمة قد دخلته بخطها الهيروغليفي التصويري ابتداء من 3000 سنة قبل الميلاد. كما أن أوربا قد دخلته من جزيرة كريت وحضارتها المينونية صاحبة الخط المستقيم حوالي 2000 قبل الميلاد (وقيل 1400 ق.م.)، والتي لم تفك رموزه إلى اليوم. وأن الحضارة الفينيقية الشامية قد دخلته حوالي 1700 سنة قبل الميلاد، أو 1500 قبل الميلاد كما يؤكده أولبريت (1948م)[1]، بظهور كتابتها الأبجدية، هذا الاختراع الذي عده موسكاتي أعظم مساهمة لشعوب سوريا وفلسطين القديمة في مضمار الحضارة[2]. على أن هذه التواريخ نسبية، قائم تحديدها على الموجودات الأثرية، خاصة فيما تعلق بالفينيقيين.

فإذا عرفنا هذا، فنتساءل متى كان أول دخول التاريخ بلاد المغرب؟

[1] سبتينو موسكاتي، الحضارات السامية القديمة، تـ. السيد يعقوب بكر، دار الرقى، بيروت، 1986، ص 121.
[2] نفسه، ص120.

الذي عليه المؤرخون أنه كان بانتقال الفينيقيين إليه، حيث انتقلت معهم لغتهم وكتابتها الأبجدية، التي ستتحول باتصالها بأهل المغرب إلى البونية. فيكون دخول المغرب القديم للتاريخ ابتداء من النزول الفينيقي إليه حوالي 1200 سنة قبل الميلاد أو 1100 سنة قبل الميلاد.

لكن هنا يطرح سؤال: ألم يكن لأهل المغرب لغة مكتوبة في العصر القديم هي اللغة البربرية، وقد وجدت لها آثار تدل عليها؟ وهذه اللغة المكتوبة متى ظهرت كتابتها حتى نفي للبربر بأحقيتهم في دخول التاريخ؟

إن عدم وجود آثار واضحة لوجود هذه الكتابة ما قبل الولوج الفينيقي لا يمنع من إمكانية وجودها، خاصة إذا علمنا قوة الاتصال الحضاري بين بلاد المغرب ومصر القديمة، التي دخلت التاريخ مبكرا، مما لا يبعد تأثيرها في البربر بكتابتها وحضارتها، هذا يجعلنا لا نجزم بأن دخول بلاد المغرب للتاريخ كان بالولوج الفينيقي، إلى أن ينتفي عندنا ما قدمناه من نظرية الاحتكاك الحضاري مع المصريين.

هذا شيء، فإذا سلمنا أن التاريخ القديم لبلاد المغرب يبدأ بالدخول الفينيقي، فمتى ينتهي؟ الذي درج عليه المؤرخون إنهاء العصر القديم والابتداء بالعصر الوسيط بالحوادث التاريخية السياسية الاجتماعية الكبرى، المغيرة لأطوار التطور البشرى، من انتهاء الإمبراطوريات الكبرى أو الغزوات الاستيطانية من شعوب لأقاليم جديدة ... فنا نجد نهاية العصر القديم الأوربي وبداية وسيطه مقترنة بنهاية الإمبراطورية الرومانية الغربية سنة 476م، التي مثلت دورا سياسيا هاما هو نهاية العصر الذهبي للإمبراطورية، ودورا اجتماعيا مهما هو غزوات وهجرات الشعوب الجرمانية للجنوب الأوربي.

فإذا بحثنا في نقطة فاصلة في تاريخ المغرب القديم وجدناها في ذلك الفتح المقترن بالقرن السابع للميلاد (فتح طرابلس 647 م- تمام الفتح 692 م) والمقترن بولوج القبائل العربية لتلك البلاد، وما أحدثه ذلك من ثورة سياسية واجتماعية ودينية، انقلبت به بلاد المغرب من الوجهة الحضارية الغربية إلى الوجهة الحضارية الشرقية، بكل ما يحمله هذا الانقلاب من معنا في التحول الديني والثقافي والسياسي.

وعلى هذا يمكننا أن نضع تحديدا نسبيا للتاريخ القديم لبلاد المغرب؛ فهو يبدأ بالولوج الفينيقي حوالي سنة 1200 ق.م. وينتهي بالولوج الإسلامي في القرن السابع للميلاد؛ فتمتد هذه الفترة التاريخية إلى ألف وتسعمائة سنة بشرية. على أن كل هذه التقديرات تبقى في حيز التحديد النسبي إلى أن تستجد براهين تاريخية أدبية أو أثرية تصلح هذا التقدير، خاصة فيما تعلق ببداية العصر القديم المغربي.

وقد يطرح البعض هنا سؤالا مهما وهو فيما تكمن أهمية دراسة هذا التاريخ المغربي؟

الحقيقة أن الدارس لمرحلة تاريخية لإقليم جغرافي ما، لا بد له أن يضع في بصيرته سببا ملهما، يجعله يلج هذا التاريخ بمنظور ممنهج، ينم عن فكر سليم مستقيم، قادر على وضع أهداف يرتسمها لمسيره في البحث والدراسة؛ فدراسة التاريخ عموما ليس خبطة عشواء، يراد من ورائها معرفة تواريخ معلومة، وحوادث مرسومة، ليس إلا! بل هي نظرة تهدف إلى معرفة الأسباب، وإدراك النتائج، وقياس الفروق، ورفع الأوهام، وإبعاد التشويهات؛ لإدراك قوانين

التطور المسيرة لحركية المجتمعات البشرية، من غير إفراط في الوصف أو تفريط في الحكم، أو كما قال أحدهم هو في باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق؛ فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق[3].

ومن ذا جاءت أهمية دراسة تاريخ المغرب القديم؛ فهي تعيننا على معرفة طوابع العمران المغربي، الموصلة إلى معرفة فروق التطور التي شهدها عبر عصوره المعاقبة، على اختلاف تفرعات تلك الطوابع من سياسة واجتماعية واقتصادية ودينية...كما هي محاولة للوقوف على الخلل المنهجي والممنهج الواقع في قراءة هذا التاريخ في مصادره القديمة ومراجعه الحديثة، ومحاولة إصلاحه بنفي التزييف والتدليس والأسطرة عنه.

ثم معرفة موقع بلاد المغرب وسط ساحة الصراعات الإقليمية في عصرها القديم، واثر ملوكه ومماليكه في كل ذلك، وأثر هذه على طبيعة التطور السياسي والاجتماعي والديني. ثم معرفة أثر التعاقب الحضاري الخارجي على بلاد المغرب، وتخليصه من تشعباته ونتائجه الموهمة، التي يوردها الكثير من التاريخيين القدامي والمؤرخين المحدثين، مما طبع الإستريوغرافية الحديثة، بما كان لها من توجهات إديولوجية معلومة.

وأيضا بدراسة التسلسل الغزّيّ الحضاري، ومعرفة بداياته ونهاياته وطبائعه، وكشف كيفياته وأساسياته وثانوياته، مع إدراك أسباب إخفاقاته ونجاحاته. ثم إدراك القيمة الحضارية التي خلفها ساكنوا المغرب المتعاقبون، ومعرفة طبائعها وكيفية استمرارها واندثارها عبر العصور، وأسباب ذلك كله.

ومع هذا معرفة السياسات الغزيّة المستعملة لإخضاع أهل بلاد المغرب، سياسيا وحضاريا، وطبيعة استجابة المغاربة لها، وكيفية هذه الاستجابة في أنواعها من غزو سلمي وعنيف؛ لاستخلاص طبيعة العقلية المغربية القديمة في مقابل هذه التأثيرات الحضارية المتعددة، ومدا استمراريتها في أزمنة أخرى.

ومعرفة طبائع الصراع المغربي المغربين وامتداداته عبر العصور، وخصوصيات تبدله التي تحكمت فيه، واثر التأثير الخارجي في تأكيده أو إضعافه، والمصالح التي كان لها أثر في ذلك، مع معرفة رموزه العاملين فيه القائدين له وتوجهاتهم الحضارية. وأخيرا البحث والتحقق من الأثر الحضاري لبلاد المغرب على من جاورها من الشعوب، وقيمة هذا الأثر وقدر بقائه وزواله.

[3] ابن خلدون، عبد الرحمن ، المقدمة، تـ. عبد السلام الشدادي، بيت الفنون والعلوم والآداب، الدار البيضاء، 2005، ج1 ص6.